الجذور الميثولوجية
للتأنيث في العربية

د. رحاب الخطيب

جامعة القصيم/ السعودية

الملخص

تعتمد العربية، من بين قلة من لغات العالم، على التقسيم الثنائي للجنس اللغوي. وإذا كان هذا التقسيم يفضي إلى دقة في التعبير بتمييز المذكر والمؤنث الحقيقيين بعلامات صرفية ونحوية، فإنه يثير إشكالية كبيرة فيما اصطلح عليه المذكر والمؤنث المجازيين. مما حدا ببعض الباحثين إلى اعتبار أن المنطق العقلي لا ينتظم ظاهرة التأنيث والتذكير، ومناط الأمر يكمن في العرف والاصطلاح، فليس ثمة سبب وراء تذكير ما ذُكّر وتأنيث ما أُنّث غير العرف اللغوي.

هذا البحث محاولة لاكتناه علل التذكير والتأنيث في العربية، من منطلق ما انطلقت منه العديد من التفسيرات على تضاربها، وربما تناقضها. فقد اعتمدت فيه فرضية عامة وهي أن أساس التذكير والتأنيث هو تصور المجتمع للمذكر والمؤنث، تحديدا الرجل والمرأة. ولذا فإن اختلاف علل التذكير والتأنيث يعود إلى تغير تصور المجتمع على طول تاريخه وتاريخ اللغة المعبرة عنه.

وفي القسم الأول توسلنا التصورات الميثولوجية سبيلا لتفسير الجنس اللغوي لطائفة من الأسماء، وهي السماء والأرض، والكواكب والنجوم، والشجر والنبات، والماء والنار، والحرب، والخمرة. تبين بالنتيجة أن تذكير اسم الشيء راجع إلى صورته الذكورية المقدسة باعتباره ربا أو إلها، وكذا تأنيث الشيء يتمخض عن صورته الأنثوية المقدسة باعتباره ربة أو إلهة.أما القسم الثاني من الأسماء فناقش التأنيث باعتباره أصلا جامعا، ويتمثل في الأسماء التي ترتد إلى النمط البدئي المؤنث، وأوضحها الشمولية والإحاطة على اعتبار تصور الإنسان في العصور الغابرة للرحم الكوني- الأم الكبرى.

الكلمات المفتاحية: التذكير والتأنيث، الميثولوجيا، الأصل اللغوي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

Abstract

Arabic language, like few other languages in the world, has the system of gender division. The research indicates that if the system of gender division leads to the accuracy of expression since it distinguishes the masculine from feminine by morphological and syntactical signs; then, it raises a question in masculine–feminine–neuter. This issue leads some scholars to consider the notion that human logic does not hold and regulate the phenomenon of feminine and masculine. In fact, it is the usage and conventions and nothing else behind the feminine –masculine language system.

This study explores justifications for feminization and masculinization in Arabic based on many conflicting interpretations and contradiction of different researches. It is based on the general theory that the idea of masculinity and femininity in Arabic is basically based on people's perception of man and woman. Therefore, the different justifications for the system change in masculinity and femininity, historically, depends on the change of people's perceptions and images.

In the first section, it is expected that the mythological conceptions of variety of nouns such as heaven and earth, planets and stars, trees and plants, water and fire, war and wine are just a method of gender interpretation. Therefore, masculinization of nouns goes back to its sacred masculine image as God or Lord; similarly, feminization of nouns should also refer back to its image as Goddess or Housewife.

In the second section, the study discusses feminization as all- inclusive system, exemplified with the names that revert to the ancient pattern of feminization, characterized by cautiousness and comprehensiveness since people, in old days, have the perception of cosmic womb – Great-Mother.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

Key words

Masculine and feminine, and mythology

مقدمة

في الأزمنة السحيقة من تاريخ البشرية، لم يكن هناك ذكر وأنثى، إذ لم يكن بعدُ قد نشأ الانقسام بينهما وحدث ذلك الشرخ العميق. كان هذا في العصر الأمومي حيث اللاتمايز بين قطبي الوجود الذكر والأنثى ممثلان بالرجل والمرأة، وحيث التوازن بين النمطين البدئيين المذكر والمؤنث؛ على المستوى البشري بين الرجال والنساء، وعلى مستوى الطبيعة.

في تلك الأزمنة، كان أن توسل الإنسان تأنيس الطبيعة سبيلا لفهمها والسيطرة عليها، فخلع عليها خياله قوى روحية خارقة ومقدسة. ولما رأى في المرأة– الأم سر الحياة والإخصاب ألّه من عناصر الطبيعة ما يحوي هذا السر، ورأى إليه الربة– الأنثى. فكانت السيادة للربة الأم ولربّات الطبيعة. وما أن حدث الانقلاب إلى العصر الأبوي حتى عُمد إلى الإطاحة بسيادة الربّات وإحلال الأرباب محلها. تلك قصة حفظتها الأساطير والأدب والأديان والطقوس عن هذه العصور الغابرة.

وأظهر تجليات تلك القصة في الأسماء ورموزها، فالاسم نتاج للمواضعات والأفكار والتصورات المحددة سلفا في سياق ثقافي ما. إن الاسم علامة على المسمى، والعلامة: دال (كلمة) يشير إلى المسمى، ومدلول (معنى) يشحن بالتصورات والأفكار والمفاهيم حول المسمى. بيد أن العربية (وأخواتها من اللغات السامية) سلكت مسلكا آخر، بحيث لم يقتصر شحن الدلالة على المدلول وحده، بل تعداه إلى الدال نفسه، ويتجلى ذلك في الجنس اللغوي تذكيرا وتأنيثا، فتنوعت أجناس الموجودات الكونية في اللغة إلى مذكر ومؤنث، على غرار تنوع الجنس البشري واللغة المعبرة عنه.

ومع تغير الأديان والمعتقدات والمفاهيم طمست ذاكرة الأسماء، إذ لم تعد تستثير في الذهن ما ينطوي عليه الاسم من معانٍ خلقها الخيال الميثولوجي. هذا البحث محاولة لسبر الذاكرة المنسية للأسماء، بالانطلاق من فرضية قديمة: كل شيء رأى إليه الخيال الجمعي ممثلا للمبدأ المذكر ذُكّر اسمه، وكل شيء رأى إليه ممثلا للمبدأ المؤنث أُنّث اسمه.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

عتبة للدخول:

تتباين اللغات بتباين الأمم في تصنيف الأسماء من حيث الجنس اللغوي، فمنها ما يعتمد تصنيفا ثنائيا (المذكر والمؤنث)، ومنها ما يعتمد التصنيف الثلاثي (المذكر والمؤنث والمحايد)، ومنها ما لا يعتد بهذا التصنيف من الأساس. وتعمد اللغة العربية إلى التصنيف الثنائي، فتذكر وتؤنث ما له مرجعية في الجنس (الإنسان والحيوان)، وتذكر وتؤنث ما لا قبل له بالتصنيف الجنسي (موجودات الكون الحسية والمجردات). وقد ذهب اللغويون العرب إلى توصيف ما لا جنس له مرجعيا تحت باب المذكر المجازي والمؤنث المجازي.

وقد حاول المستشرقون، وبعض الباحثين العرب من بعدهم، تفسير ظاهرة الجنس اللغوي (المذكر والمؤنث المجازيان) في اللغات السامية، ومن ضمنها العربية[1]، لكنهم لم يقعوا على علة واحدة مطّردة تنتظم المذكر والمؤنث من الأسماء، بل إن بعض ما سيق من علل، وإن كان يصلح لتفسير بعض الأسماء، إلا أنه يجافي الواقع اللغوي للكثير من الأسماء. من ذلك، مثلا، الإيجابية والسلبية معيارا للتذكير والتأنيث، فما كان من الأشياء إيجابيا يأخذ صيغة التذكير، وما كان سلبيا يأخذ صيغة التأنيث، وهو معيار يصح لتفسير أصل التذكير والتأنيث لبعض المفردات، على حين يخرج منه الكثير. وأظهر مثال عليه: الحياة (مؤنث) والموت (مذكر)، فهذه الثنائية وفقا للإيجابية والسلبية ينبغي أن تأتي معكوسة.

ولعل ظاهرة التذكير والتأنيث من أكثر الظواهر اللغوية بعدا عن المنطق، ومردّ الأمر فيها إلى التواضع والاصطلاح[2]. لكن التواضع والاصطلاح لا يعني أن نسلم بالعشوائية والفوضى في تصنيف المذكر والمؤنث. إذ يرجع عدم اطّراد ظاهرة الجنس اللغوي وسيرها وفق قواعد منطقية تأثرها بعوامل اجتماعية ودينية وفكرية. وتتفاوت هذه العوامل بتفاوت المجتمعات في تقاليدها وأعرافها وأفكارها[3]. ناهيك عن أنّها عوامل غير ثابتة في المجتمع الواحد، إذ تتغير الثقافة المجتمعية بين عصر وآخر، ولا بد لهذا التغير أن يترك أثرا على اللغة. ومن هنا تتعدد المقاييس التي بوفقها ذُكّر ما ذُكّر وأُنّث ما أُنّث على طول التاريخ الطويل للعربية. مما أدى في النهاية إلى الاضطراب في التماس علة واحدة مطردة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

ورغم تعدّد العلل إلا أنها قد تُجمع في علّة واحدة، وهي تصور المجتمع للذكر والأنثى، بالأحرى للرجل والمرأة. وهذا يرجعنا إلى الفرضية في أعلاه، لملاحظة أن المبدأ المذكر والمبدأ المؤنث ليسا ثابتين في تاريخ المجتمعات. وعليه، سنعمد لكشف هذين المبدأين في الأفكار والتصورات الميثولوجية لما حمل من الأشياء على المذكر أو المؤنث.

الاسم استعارة ميثولوجية:

تعدّ الأساطير أدوات تحدث بها المخيال المجتمعي عن رموزه التأسيسية، وكوّن بها ذاته، هي لغة، بل لغة مشتركة احتفظ بها اللاوعي الفردي والجمعي. وبما هي لغة، يحتل فيها الاسم مكانة مهمة، فهو "باب من أبوابها ووسيلة إليها؛ لأن التسمية صورة من صور الخلق، ولأن الاسم في الفكر الأسطوري ليس مجرد دليل لغوي وإنما هو أيضا الشيء ذاته"[4]. وعليه، يمكن التوسل بالطقوس والعبادات والرموز سبيلا لتفسير الجنس اللغوي.

السماء والأرض:

السماء والأرض مؤنثان في العربية، ويرجع البعض تأنيثهما إلى التصور العربي للمرأة من حيث رأوا فيها غموضا وسحرا، ونسبوا إليها القوى الخارقة، فضمّوا إليها كل ظواهر الطبيعة التي خفي عليهم أمرها وتفسيرها، ومنها تأنيث السماء والأرض لما فيهما من الغموض[5]. وعلى ما في هذا الرأي من وجاهة تفسير، إلا أن سمة الغموض والسحر أدّت إلى تأليه المرأة وتأليه ما رؤي من الطبيعة مشاكلا لها. فالأرض والسماء ومعهما الشمس أمّهات الطبيعة بما تملكه من تأثير في الإنسان والحيوان والكون[6].

الكواكب والنجوم:

عبد العرب الكواكب والنجوم وألّهوها لتصورهم لقواها المؤثرة في الكون والبشر. ولا يقتصر ذلك على الشمس والقمر، إنما يسري على كثير من الكواكب. وعلى الرغم من أن الإسلام عمد إلى طمس هذه العبادات، إلا أننا لا نعدم بعض الإشارات الدالة على أن ديانتهم كانت قائمة على عبادة الأجرام السماوية، مثل أسماء الأعلام: عبد شمس، عبد الثريا، عبد نجم.

الشمس:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

تنتمي الشمس في التصور العربي إلى جنس إناث الآلهة، وقد شاعت عبادتها في جزيرة العرب شمالها وجنوبها. وهي تتّحد باللات في الطائف. وجميع الرموز التي اتخذت لها مؤنثة من حيث هي رمز للأمومة والخصوبة: مثلت بصورة امرأة عارية رمزا للأمومة والإخصاب، كان عابدوها يقدمون لها صورة الفرس نذرا، صورت بالمهاة والغزالة والنخلة[7].

فاعتبرت الربة، أو الإلهة الأم، وهذا سر تأنيث الاسم في العربية، خلافا للغات التي ربطتها بإله ذكر كالبابليين والتدمريين، فكان اسمها في البابلية والتدمرية بصيغة التذكير[8].

القمر:

انتشرت عبادة القمر في شمال الجزيرة وجنوبها بصفته إلها، وقد سمي (ودّ)، كما اتحد بـ"هبل" إله الكعبة الأكبر الذي مُثّل بصورة رجل، وهو أبو اللات والعزة ومناة. أما صوره ورموزه فدالة على الذكورة والقوة الجسدية:

الثور رمزا من رموز القوة

الحية رمزا للتجدد والخصوبة

ورد في وصفه أنه كان "تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال"[9]. وهذا هو سر تذكير العربية للقمر.

الزهرة :

كانت الزهرة من معبودات عرب الجنوب تحت اسم عثتر، وهي أيضا من معبودات عرب الشمال. وتقابلها عشتار البابلية نجم الصباح، وعشتروت الأوغاريتية. وكانت لدى الجميع رمزا للحب والحسن والإشراق. وهذا ما يشي به اشتقاق اسمها في العربية من "زهر" بمعنى أشرق وتلألأ[10]، ومما ورد عنها في العصر الإسلامي أنها كانت امرأة حسناء من أهل فارس أغوت هاروت وماروت فمسخت كوكبا، وفي رواية ثانية أنها كوكب نزل على شكل امرأة حسناء[11]. فتأنيثها في العربية آتٍ من كونها ربة الحسن.

الثريا والدبران:

الثريا معبودة طيء، وهي رمز الثراء لأنهم ينتظرون معها النوء الكثير والخير العميم[12]، فهي الأنثى مانحة الخصب وما يتأدى عنه من ثراء، وبتأنيثها أُنّث اسمها. أما الدبران فهو

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

خلافها في التذكير والدلالة. فهو إله عظمته كنانة وقريش وطائفة من تميم، وكانوا يخشون نوءه لأنهم يتوقعون معه سنة مجدبة[13]. ولعل رهبتهم منه هي التي دفعتهم لعبادته.

إن التذكير والتأنيث لهذه الكواكب ليس مجازيا، بل إنهم نظروا إليها على أنها بالفعل كذلك. ولهم فيها تصورات تعكس علاقات البشر الاجتماعية، إذ يروى أن "الدبران خطب الثريا، وأراد القمر أن يزوجه، فأبت عليه وولّت. وقالت للقمر: ماذا أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له. فجمع الدبران قلاصه (القلاص صغار النوق) يتمول بها. فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدّامه، يعنون القلاص"[14].

سهيل والشعريان والجوزاء:

سهيل كوكب يماني، عبدته بعض طيء، ويروى أنه كان عشارا على طريق اليمن ظلوما فمسخه الله كوكبا[15]. أما الشِّعرَى فهما شِعريان: الشعرى الشامية وتسمى الغميصاء، والشعرى العبور أو الشعرى اليمانية. وقد عبد العرب الشعرى العبور لما انفردت به عن سائر الكواكب بعبورها السماء عرضا. ويروى أن الشعريان أختان لسهيل، وهناك رواية أخرى أن الشعرى العبور كانت زوجة لسهيل. أما الجوزاء، وهي نجم يعترض السماء، فقد صورت شكلا بما روي، أن سهيلا ركض خلف الجوزاء فركلته برجلها فطرحته حيث هو، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها[16]. وعلى أساس من هذه التصورات ومقاربتها بالعلاقات البشرية ذُكّر سهيلا، وأُنّثت الشعرى والجوزاء.

الحرب:

لعل الحرب لم يكن لها قبيل في العصر الأمومي، ففي هذا العصر لم تعرف البشرية أي نوع من أنواع الحروب والاقتتال. ومع ظهور الرجل ظهرت الملكية، وظهر الاقتتال والصراع والحروب. فكان الزمن الأبوي زمن بروز منطق القوة[17]. وإذا كان كذلك، فما وجه تأنيث (الحرب) في العربية، هل هو مجرد عرف واصطلاح، أم إن الأمر ينطوي على النظرة السلبية للمرأة بما هي مجلبة للخراب والدمار؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

إن الاسم، على ما سلف، لم يكن لدى الشعوب القديمة مجرد دال جاء بالتواضع والاصطلاح، إنما كان يعد جزءا من الكيان، إن لم يكن هو الكيان نفسه، إنه العلامة والمعنى. ويبين ذلك في صورة الحرب في الشعر الجاهلي، حيث صورت على أنها أنثى مرعبة، خصيبة لكنّ خصوبتها بغيضة ومتحققة، من حيث تلد الموت والخراب. إنها أنثى ولود مُتئِمة، فهي في الغاية من الخصوبة المشؤومة المنفرة، إذ تلد غلمان بشعين مقبوحين[18]. ولعل هذه الصورة للحرب-الأنثى قد تسربت من الديانات القديمة، وهي صورة الربة المحاربة عشتار في بابل وعنات الكنعانية[19]. فعلى الرغم من أن الحرب صنيعة الرجال، إلا أنها ربطت بالقوة الخارقة لإناث الآلهة، ومن هذا المنطلق أُنّث الاسم في العربية.

الشجر والنبات:

كان العرب، وحتى فترة متأخرة قبيل الإسلام، يقدسون الأشجار والنبات، ومن أشجارهم المقدسة التي كانت كذلك محلا للآلهة: ذات أنواط/ السدرة، والنخلة مثوى الإلهة العزى رمز القوة والعزة، والعبلاء مثوى الإله (ذو الخلصة) وهو من أصنام العرب المشهورة. وقد أقاموا الطقوس والمناسك لأشجارهم المقدسة، فكانوا يأتونها كل سنة ويعلقون عليها الأسلحة ويذبحون، ويقدمون الحنطة والشعير تيمنا وتبركا، كما أنهم عاملوها معاملة المرأة من حيث كانوا يعلقون عليها القلائد والحلي. ولا شك أن في هذا دلالة على أن الشجرة بخضرتها الدائمة رمز الحياة والتجدد والخلود، وهي كالمرأة صنو الحياة، او مانحتها، في بيئة مقفرة مجدبة[20].

ترتبط الشجرة إذن بالأنثى من حيث هي الصورة المقدسة للربة الأم بما هي عليه من صفات الخصوبة والتجدد، فالنخلة هي المعبودة المرتبطة بالربة الشمس رمز الخصوبة. ومن هنا جيء إلى تأنيث الاسم (الشجرة)، وإلى تأنيث كل ما يندرج تحتها على اختلاف شكله ونوعه. فتأنيث الشجر في العربية، وكذا سائر النبات، يسري على جميع الجنس(النبتة، الغرسة، العشبة، الزيتونة، التفاحة الخ). فعالم النبات جيء بجميع آحاده على التأنيث لغويا، وذلك انعكاسا لمبدأ التأنيث في التصور العربي. ويتراءى هذا الأصل الميثولوجي في النمط البدئي للتأنيث من حيث يتماهى مع الطبيعة، وقد قدست الطبيعة، نقصد عالم النبات، بكونها، كالمرأة، تجلي الروح غير المرئي بما هي مانحة الحياة، أو سرها.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

الماء والنار:

هناك ضدية بين الماء والنار لاختلاف طبيعة كل منهما بردا وحرارة ورطوبة وجفافا وحركة بالنزول والصعود. والجنس اللغوي يتوافق مع هذه الضدية فالماء مذكر والنار مؤنثة، فهل يعكس هذا التقابل بين مبدأي التذكير والتأنيث؟

ولعل الماء وسائر علاماته (الغيث، المطر، النهر، البحر) من حيث جاء على صيغة التذكير يرتبط بالمبدأ المذكر. ودليل ذلك (هبل) كبير الآلهة في مكة، فقد كان نصبه على جب بما يحدد أنه من رموز الخصوبة المستمدة معناها الرمزي من الماء، ذلك أن عرش الآلهة في الثقافة السامية عموما كان على الماء، وهذا يقربه ويناظره بالإله بعل إله المطر عند الكلدانيين والآراميين، وعن ابن عباس: قول العرب "إن المطر بعل الأرض"[21]، أي أنه يلقّحها، فيقترن المطر (والماء عموما) بالعملية الجنسية، فهو يلقح الأرض على نحو ما يلقح الرجل المرأة.

إذن، كان المخيال العربي يرى إلى الماء نظيرا للرجل، أي ممثلا للمبدأ البدئي المذكر. ومما يدلّل على ذلك، أن استخراج الماء من الآبار في الأساطير العربية كان أمرا خاصا بالرجل. إذ ينسب حفر بئر زمزم إلى إسماعيل (وبعض الروايات تسنده إلى عبد المطلب، وأخرى ترجعه إلى آدم)، فالعيون والآبار مركز الحياة الاجتماعية في بيئة قاحلة تغدو رمزا من رموز الأب واهب الحياة. والبئر، التي هي محلّ فعل الأب المقدس استخراجا، مؤنثة في العربية لأنها تحمل الماء في بطنها ولأن ربها (مستنبطها) يدلي فيها بدلوه[22]. وكل حامل للماء مؤنث في اللغة (البئر، النبع، السحابة، الغيمة).

وفي المقابل فإن النار مؤنثة في العربية، من حيث هي انعكاس للنمط البدئي المؤنث. ومما يدل على ذلك أن إشعال النيران يمثل العملية الجنسية[23]، فالمرأة تشعل النيران، والرجل يطفئها بمائه. وقد قدّس العرب النار وكانوا يتقربون إليها بأن يلقوا فيها الطعام والشراب والجواهر والحلي[24]، على نحو يقارب طقوس تقربهم من الشجرة. وبالفعل فقد ربطوا بين الشجر والنار في قولهم: في كل شجر نار[25].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

وعليه، فإن تأنيث النار في العربية ليس مجرد استعمال لغوي اعتباطي عشوائي، إنما هو يعكس تصوّرهم لها على أنّها أنثى، أو أنّها تمثيل للمبدأ الأنثوي. وممّا يشير إلى ذلك أصول أشراف العرب التي أرجعت إلى المرأة– النار فيما دعي جمرات العرب[26].

إنّ ضدّية الماء والنار نظر إليها على أساس من التكامل بين الماء والنار، وهو بالمحصلة تكامل بين الذكورة والأنوثة. ويتمثّل ذلك في نار الاستمطار بالتسليع. فإذا انحبس المطر عمد العرب إلى السِّلَع (نبات أو شجر مر) والعُشَر (كبار شجر العضاء) وربطوها في أذناب البقر (البقرة رمز الخصب والشمس) وأصعدوها إلى جبل وعر وأشعلوا فيها النيران ضاجين بالدعاء والتضرع لنزول المطر[27].

الخمرة :

لعلّ تأنيث الخمرة في العربية يرجع لكونها سرا سحريا للمرأة. فقد فتحت المرأة للبشرية عالما جديدا من السحر الرائع باختراعها للخمرة، وذلك بإضافة الخميرة إلى عصير الحبوب والعنب، فكان هذا الاختراع نتاجا للقوة السحرية لجهود المرأة في مجال الزراعة في مصر القديمة وبلاد الرافدين. وكانت الخمرة تشرب وتقدم قرابين للأرباب والربات لزيادة تحكمهم بالمحاصيل الزراعية[28].

وقد كان لها الشأن ذاته عند العرب، فقد ارتبطت بطقوس الدين الوثني، حيث كانت شرابا مقدسا للآلهة يبعث فيهم القوى المتفوقة الخارقة. ونجد في الشعر العربي الجاهلي تشبيها للخمر بدم الغزال، والغزال كائن مقدس ورمز للمرأة والشمس– الأم[29].

التأنيث: الأصل الجامع، والجامعة الكلية:

عمد اللغويون العرب إلى مقولة "الأصل والفرع" لتفسير وتقعيد كثير من الظواهر اللغوية، ومن ضمنها التذكير والتأنيث. يقول سيبويه: إن "الأشياء كلها أصلها التذكير، ثم تختص بعدُ، فكل مؤنث شيء، والشيء مذكر، فالتذكير أول"[30]. ودلل على ذلك بأن التفريق بين المذكر والمؤنث يكون بعلامة، تتخذ من صيغة المذكر أصلا (مثل عالم وعالمة). غير أن كثيرا من الألفاظ قد تخلفت عن هذه المقولة، مما دفع ابن التستري للقول بأن "ليس يجري أمر المذكر

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

والمؤنث على قياس مطرد، ولا لهما باب يحصرهما، كما يدعي بعض الناس"[31]، يقصد بالادعاء العلامة التي اتخذت أساسا لاعتبار الأصل.

وإذا كانت قاعدة الأصلية والفرعية لا تنتظم المذكر والمؤنث الحقيقيين من حيث الشكل، أي الصيغة اللغوية، فما بالنا بالمذكر والمؤنث المجازيين. وقد رؤي في هذه الحالة المجازية، أن المذكر لا يعني الذكر، والمؤنث لا يعني الأنثى، فالأمر أن المذكر والمؤنث تصنيف لغوي لفظي لا يتعدى إلى الذات نفسها، فالمؤنث المجازي لا يعنى اتّصاف الذات بالأنوثة[32]، وكذا المذكر. بيد أننا أظهرنا فيما سبق أن التذكير والتأنيث ليس شكليا، وإنما يتعدى إلى الذات وفقا لتصور الخيال العربي لهذه الذات. وبالنظر إلى الجانب الدلالي، نرى أن العربية سلكت مسلكا مغايرا للأصلية والفرعية في بعض الأسماء، حيث تنحى إلى تأنيث الاسم حيثما دل على مسمى هو أصل جامع في بابه، أو جامع كلي لبابه. وذلك في: (أم، و–قبيلة، وأسماء المدن والممالك، ونفس، ودار).

الأمّ:

لعل الاستعمالات المختلفة لكلمة (أمّ) تعكس تصور المبدأ المؤنث على أنّه أصل جامع أو كلية جامعة. فـ"أمّ كل شيء في العربية أصله"[33]، والهمزة والميم أصل واحد تتفرع منه أربعة أبواب، وهي الأصل والمرجع والجماعة والدين[34]. "اعلم أن كل شيء يضم إليه سائر ما يليه فإن العرب تسمي ذلك الشيء أمّا"[35]، ولا بد أن هذه الاستعمالات المختلفة قد انحدرت من العصر الأمومي، حيث كانت الأم أصل التناسل، والربة المعبودة، والأم الكبرى رحم الكون. فاستمر هذا التصور أو المبدأ لتوليد الألفاظ في العربية حتى بعد السيطرة الأبوية. ومنها: أُمة: القوم من الناس من عرق واحد، أي أصل جامع. و**أُمة**: كل قوم نسبوا إلى نبي فهم أمته، وكل قوم على دين واحد فهم أمة، وكل جنس من الحيوان غير بني آدم فهم أمة على حدة. وأمة: الرجل الجامع للخير (إن إبراهيم كان أُمة قانتا لله)[36]. وأم القرى: هي مكة سميت بذلك لأنها توسطت الأرض فيما زعموا، وكل مدينة هي أمّ ما حولها من القرى[37]. وأمّ الكتاب: الفاتحة، سميت بذلك لأنه يبتدأ بها في كل صلاة، أو لأنّها أصل الكتاب[38]، وكانت "الفاتحة أمّا لجميع الكتب، وهي القرآن العظيم، أي المجموع العظيم الحاوي كل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

شيء"[39]. وأم النجوم: المجرة لأنها مجتمع النجوم[40]. وأمّ الرأس: الدماغ لأنه مجتمعه[41]. وأمّ الجسد: الرأس سمي كذلك لأنه "مجموع القوى الحسية والمعنوية كلها للإنسان"[42]، وأمّهات الكتب: أصولها الجامعة الحاوية للعلوم، واللغة الأمّ، والوطن الأمّ: الأصل الجامع لأبناء اللغة، وأبناء الوطن.

القبيلة:

القبيلة من الناس بنو أب واحد، ويقال لكل جماعة من واحد قبيلة[43]، فالقبيلة بحسب المشار إليه هي الجامعة الكلية، وتدل على "أصل جامع" للأفراد المنتسبين إليها بالنظر إلى النسب الأبوي. والاسم بما هو بصيغة التأنيث يتناقض مع الظاهرة التي يسميها، بما هو النظام الأبوي ذكوري، من قبل النسب والسيادة في النظم السياسية والاجتماعية. فكيف للسلطة الذكورية أن تنضوي تحت اسم مؤنث الصيغة وهي التي ترى التأنيث هامشيا وثانويا؟ ولعلّ هذه التسمية قد نشأت بالأساس في العصر الأمومي، فاحتفظت بها ذاكرة اللغة، وأبقي على استعمالها في الفترة الأبوية. ويدلّ على ذلك أسماء القبائل المؤنثة بما هو الاسم يشير إلى أمومية النسب (مثل بنو ربيعة).

ومثلها العائلة والأسرة، وهما مؤنثتان، وتطلقان على الأسرة، أو العائلة الصغيرة، وعلى القبيلة أيضا. وتشيران كما القبيلة، إلى الأصل الجامع، وقد أنثتا جريا على سنن العربية في تأنيث ما دل على الجمعية.

الدار والبيت:

الدار والبيت في العربية من المترادف، ومعناهما المنزل ومحل السكن. لكن الدار مؤنثة والبيت مذكر. وقد يرجع تأنيث الدار إلى العصر الأمومي، حيث كانت الإحاطة والحضانة الفردية والجماعية من الوظائف الطبيعية للمرأة[44]، والإحاطة من المعاني الأساسية للنمط البدئي المؤنث. وهذا المعنى للدار كامن في اشتقاق الاسم بالإضافة إلى صيغة التأنيث، فالجذر (دور) "يدل على إحداق الشيء بالشيء من حواليه"[45]. وممّا يدعم ذلك أنّ (دار) تطلق على القبيلة[46].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

أما البيت فقد يرجع إلى فترة متأخرة، حيث سيادة الرجل في العصر الأبوي، ومن هنا عمد إلى تذكيره، فالبيت "المأوى والمآب ومجمع الشمل"، وهو "عيال الرجل الذين يبيت عندهم"[47]. ولا ينطوي على معنى الإحاطة الفردية والجماعية الذي للدار فكان أولى الإتيان إلى تذكيره. ومن الملاحظ أن أهل القرى الأردنية يميلون إلى استعمال (دار) بينما أهل المدن أميل إلى استعمال (بيت)، سواء للتعبير عن مكان السكن أو العشيرة. ولعل ذلك يرجع إلى عهود سحيقة، حيث كان نشوء المدن في العصر الحجري الحديث بداية للتحول من الأمومية، التي مقرها القرى، إلى الأبوية[48].

أسماء المدن والممالك:

إن ملمح الإحاطة والجمعية كان من دواعي تأنيث الأسماء في العربية على اعتبار أنه ملمح مميز للأنثى وفق التصور الميثولوجي، لذلك أُنّث المكان الذي ينطوي على هذا الملمح: قرية، مدينة، ولاية، مملكة. وكذا أسماء القرى والمدن والممالك جميعها جاءت على التأنيث (كقولنا: هذه عمان)، وذلك على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. وهذه من العادات اللغوية التي ما تزال مطّردة، حيث تسلك اللغة هذا المسلك مع المدن الجديدة (كقولنا: هذه نيويورك) [49].

النفس:

للنفس في العربية معنيان: الأول: الروح، والثاني: فيه معنى جملة الشيء وحقيقته؛ قتل فلان نفسه، وأهلك نفسه؛ أي أوقع الإهلاك بذاته كلها وحقيقته. والنّفس يعبر فيها عن الإنسان بجمعيته[50]. ولعل معنى الجمعية والشمول للنفس مدخل تأنيثها في العربية. ويتأكد ذلك بارتباط النفس بالمبدأ المؤنث. فقد كان المبدأ المؤنث في العالم القديم، في صورة الإلهة، وقد صوّر كحِواء (رحم) يصل الروح غير المرئية بالطبيعة، والكلمة التي كانت مستعملة آنذاك لتسمية ذلك الحواء (آلهة)، ثم صارت النفس.

خاتمة:

تعتمد العربية، من بين قلة من لغات العالم، على التقسيم الثنائي للجنس اللغوي. وإذا كان هذا التقسيم يفضي إلى دقة في التعبير بتمييز المذكر والمؤنث الحقيقيين بعلامات صرفية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

ونحوية، فإنه يثير إشكالية كبيرة فيما اصطلح عليه المذكر والمؤنث المجازيين. ممّا حدا ببعض الباحثين إلى اعتبار أن المنطق العقلي لا ينتظم ظاهرة التأنيث والتذكير، ومناط الأمر يكمن في العرف والاصطلاح، فليس ثمة سبب وراء تذكير ما ذُكّر وتأنيث ما أُنّث غير العرف اللغوي.

هذا البحث محاولة لاكتناه علل التذكير والتأنيث في العربية، من منطلق ما انطلقت منه العديد من التفسيرات على تضاربها، وربما تناقضها. فقد اعتمدت فيه فرضية عامة، وهي أن أساس التذكير والتأنيث هو تصور المجتمع للمذكر والمؤنث، تحديدا الرجل والمرأة. ولذا فإنّ اختلاف علل التذكير والتأنيث يعود إلى تغير تصور المجتمع على طول تاريخه وتاريخ اللغة المعبرة عنه.

وقد توسلنا التصورات الميثولوجية سبيلا لتفسير الجنس اللغوي لبعض الأسماء، وتبيّن بالنتيجة أن تذكير اسم الشيء راجع إلى صورته الذكورية المقدسة باعتباره ربا أو إلها، وكذا تأنيث الشيء يتمخّض عن صورته الأنثوية المقدسة باعتباره ربة أو إلهة. أمّا القسم الثاني من الأسماء فناقش تلك التي ترتدّ إلى النمط البدئي المؤنث، وأوضحها الشمولية والإحاطة على اعتبار تصور الإنسان في العصور الغابرة للرحم الكوني- الأم الكبرى.

الهوامش:

(1) ينظر عرضا لمجمل هذه الآراء ونقدها:

عمر، أحمد مختار: **اللغة واختلاف الجنسين**. القاهرة: عالم الكتب، 1999، ص48-50؛

برهومة، عيسى: **اللغة والجنس، حفريات في الذكور والأنوثة**. عمان: دار الشروق، 2002، ص58-65.

(2) بوبفار، عمر: **ظاهرة الجنس، مقاربة لسانية**. مجلة الأثر، عدد13/ مارس، 2012، ص24.

(3) محيي الدين، فرهاد عزيز: **ظاهرة التذكير والتأنيث بين المنطق العقلي وواقع اللغة**. ص3-6.

(4) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها**. بيروت: دار الفارابي، 1994، 252/1.

(5) أنيس، إبراهيم: **من أسرار اللغة**. القاهرة: مطبعة الإنجلو مصرية، ص147.

(6) عمر، أحمد مختار: **اللغة واختلاف الجنسين**، ص148.

(7) المرجع نفسه، 192/1-195.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

[8] البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها**. دار الأندلس، ط2/ 1981، ص57.

[9] عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية**، 1/195-200

[10] المرجع السابق، 1/212- 213

[11] المرجع السابق، 1/208-210.

[12] المرجع السابق، 1/221.

[13] المرجع السابق، 1/222

[14] المرجع السابق، 1/222

[15] المرجع السابق، 1/223. والعشار وظيفة دينية تتمثل بفرض العشر على التجار لصالح الإله (لسان العرب، مادة عشر).

[16] المرجع السابق، 1/223-224.

[17] عبود، حنا: **النظرة الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري**. اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص143، 145.

[18] البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي**، 83. يستند على قول زهير:

إذا لقحت حرب عوان مُضرّة ضروس تهر الناس أنيابها العُصل

وقوله :

فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كِشافا ثم تنتج فتتئم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

[19] المرجع السابق، ص82.

[20] ينظر المرجع السابق، 1/273- 280

[21] ينظر: عجينة، محمد: **موسوعة الأساطير عن الجاهلية**، 1/194-19م39.

[22] المرجع السابق، 1/261.

[23] زكي، أحمد كمال: **الأساطير دراسة حضارية مقارنة**. بيروت: دار العودة، 1979، ص129.

[24] المرجع السابق، ص95-96.

[25] المرجع السابق، ص95.

[26] جمرات العرب ثلاث، وهم أخوة لأم، وذلك أن امرأة من اليمن رأت في المنام أنه يخرج من فرجها ثلاث جمرات، فتزوجها كعب بن عبد المدان فولدت له الحارث وهم أشراف اليمن، ثم تزوجها بغيض بين ريث

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

فولدت له عبسا وهم فرسان العرب، ثم تزوجها أُدّ فولدت له ضبة، فجمرتان في مضر وجمرة في اليمن. (**لسان العرب**، مادة جرم).

(27) عجينة، محمد: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية، 265/1.

(28) رايلي، كافين: **الغرب والعالم تاريخ الحضارة من خلال موضوعات**. ترجمة: عبد الوهاب محمد المسيري. الكويت: سلسلة عالم المعرفة (97)، 1986، القسم الأول، ص51.

(29) البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي**، ص75.

(30) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت180هـ): **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: الهية المصرية العامة للكتاب، 1975، 241/3.

(31) ابن التستري الكاتب (ت361): **المذكر والمؤنث**. تحقيق: أحمد عبد المجيد هريدي. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1983،ص47-48.

(32) الشمسان، أبو أوس إبراهيم: **المذكر والمؤنث ماهيته وأحكامه**. ضمن: **مقاربات في اللغة والأدب**، كتاب تذكاري بمناسبة العيد الذهبي لجامعة الملك سعود، 2007، ص15.

(33) **القاموس المحيط**، مادة (أم)

(34) **مقاييس اللغة**، مادة أم.

(35) **لسان العرب** مادة (أمم)

(36) **لسان العرب**، مادة (أمم).

(37) **مقاييس اللغة**، مادة أمم.

(38) **لسان العرب**، مادة (أمم)

(39) ابن عربي، محيي الدين، **الفتوحات المكية**، طبعة دار صادر (د.ت)، 134/2.

(40) **لسان العرب**، مادة أمم

(41) **لسان العرب** مادة (أمم)

(42) ابن عربي، محيي الدين: **الفتوحات المكية**، 134/2.

(43) **لسان العرب**، مادة (قبل).

(44) رايلي، كافين: **الغرب والعالم**...، ص52.

(45) **مقاييس اللغة**، مادة (دور).

(46) **لسان العرب**، مادة (دور)

(47) **مقايس اللغة**، مادة (بيت).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588

(48) رايلي، كافين: **الغرب والعالم**...، ص59- 60.

(49) عمايرة، أسماعيل أحمد: **ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية**، ص21

(50) **لسان العرب**، مادة (نفس).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/588